## الأدب . وكلام الصوفية فيه (*)

### فصل

وأما الادب مع الرسول صلى الله عليه وسلم فالقرآن مملوء به ، فرأس الادب معه كمال التسليم له والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون ان يعارضه بمعارضة خيال باطل يسميه معقولا ، أو يحمله شبهة أو شكا ، أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم ، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والاذعان ، كما وحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل ، فهما توحيدان لانجاة للعبد من عذاب الله الا بهما ـ توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول ، فلا يحاكم الى غيره ولا يرضى بحكم غيره ، ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وامامه ، وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه ، فان أذنوا له نفذه وقبل خبره ، وإلا فان طلب السلامة أعرض عن أمره وخبره وفوضه اليهم ، والا حرفه عن مواضعه ، وسعى في تحريفه تأويلا وحملا فقال : نؤوّله ونحمله ، فلأن يلقى العبدُ ربه بكل ذنب على الاطلاق ما خلا الشرك بالله خير له من ان يلقاه بهذه الحال

ولقد خاطبت يوما بعض أكابر هؤلاء فقلت له : سألتك بالله لو قدّر ان الرسول صلى الله عليه وسلم حي بين اظهرنا وقد واجهنا بكلامه وبخطابه ـ أكان فرضا علينا ان نتبعه من غير ان نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه ؟ أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم ؟ فقال : بل كان الفرض المبادرة الى الامتثال من غير التفات الى سواه . فقلت : فما الذي نسخ هذا الفرض عنا ؟ وبأي شيء نسخ ؟ فوضع أصبعه على فيه وبقي باهتا متحيرا وما نطق بكلمة

هذا أدب الخواص معه ، لا مخالفة أمره والشرك به ، ورفع الاصوات وازعاج الاعضاء بالصلاة عليه والتسليم ، وعزل كلامه عن اليقين ، وان يستفاد منه معرفة الله او يتلقى منه احكامه . بل المعول في باب معرفة الله على العقول المنهوكة المتحيرة

(*) نموذج من كتاب مدارج السالكين للامام العارف المحقق ابن قيم الجوزية . وقد اطال في بحث الادب مع الله تعالى ثم قال

المتناقضة ، وفي الاحكام على تقليد الرجال وآرائها . والقرآن والسنة انما نقرأهما تبركا ، لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه . ومن طلب ذلك ورامه عاديناه وسعينا في قطع دابره واستئصال شأفته ( بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون * حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون * لاتجأروا اليوم انكم منا لاتنصرون * قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به سامرا تهجرون * أفلم يدبروا القول ؟ أم جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين ؟ * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟ أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق وأكثرهم الحق كارهون * ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن ، بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون * أم تسألهم خرجا ؟ فخراج ربك خير وهو خير الرازقين * وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم * وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون )

والناصح لنفسه العامل على نجاتها ، يتدبر هذه الآيات حق تدبرها ، ويتأملها حق تأملها ، وينزلها على الواقع يرى العجب ، ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا « فالحديث لك واسمعي ياجارة » والله المستعان

ومن الادب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ان لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ولا اذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن ، كما قال تعالى ( ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدي الله ورسوله ) وهذا باق الى يوم القيامة ولم ينسخ . فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته ، كالتقدم بين يديه في حياته ، لا فرق بينهما عند ذي عقل سليم . قال مجاهد رحمه الله : لاتفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضيه الله على لسانه . وقال الضحاك لاتقضوا أمرا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ابو عبيدة : تقول العرب لاتقدم بين يدي الامام وبين يدي الاب . أي لا تعجلوا بالامر والنهي دونه ، وقال غيره : لا تأمروا حتى يأمر ولاتنهوا حتى ينهى .

ومن الادب معه أن لا ترفع الاصوات فوق صوته فانه سبب لحبوط الاعمال ، فما الظن برفع الآراء وتائج الافكار على سنته وما جاء به ؟ أترى ذلك موجبا لقبول الاعمال ، ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها ؟

ومن الادب معه أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره قال تعالى ( لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ) وفيه قولان للمفسرين ( أحدهما ) انكم لا تدعونه باسمه كما يدعو بعضكم بعضا، بل قولوا : يارسول الله ! يا نبي الله ! فعلى هذا المصدر مضاف الى المفعول، أي دعاءكم الرسول . (الثاني) ان المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضا ان شاء أجاب وان شاء ترك ، بل اذا دعاكم لم يكن لكم بد من اجابته، ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة . فعلى هذا المصدر مضاف الى الفاعل، أي دعاءه اياكم

ومن الادب معه انهم اذا كانوا معه على أمر جامع من خطبة أو جهاد أو رباط لم يذهب أحد مذهبا في حاجته حتى يستأذنه ، كما قال تعالى ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ) فاذا كان هذا مذهبا مقيدا بحاجة عارضه لم يوسع لهم فيه الا باذنه ، فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين أصوله وفروعه دقيقه وجليله ؟ هل يشرع الذهاب اليه بدون استئذانه؟ ( فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون )

ومن الادب معه ان لا يستشكل قوله بل تستشكل الآراء لقوله ، ولا يعارض نصه بقياس بل تهدر الاقيسة وتلقى (١) لنصوصه ، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولا ، نعم هو مجهول ، وعن الصواب معزول . ولا يوقف قبول ماجاء به على موافقة أحد ، فكل هذا من قلة الادب معه صلى الله عليه وسلم ، وهو عين الجرأة

## فصل

وأما الادب مع الخلق فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم ، فلكل مرتبة أدب ، والمراتب فيها أدب خاص ، فمع الوالدين أدب خاص ، وللاب منهما أدب هو أخص به ، ومع العالم ادب آخر ، ومع السلطان ادب يليق به ، وله مع الاقران أدب يليق بهم ، ومع الاجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي انسه ،

(١) ب «وتلقي»

ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته .

ولكل حال أدب — فللأكل آداب وللشرب آداب ، وللركوب والدخول والخروج والسفر والاقامة والنوم آداب ، وللبول آداب ، وللكلام آداب ، وللسكوت والاستماع آداب .

وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه ، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره ، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب ، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الادب

فانظر الى الادب مع الوالدين كيف نجى صاحبه من حبس الغار حين اطبقت عليهم الصخرة ، والاخلال به مع الام تأويلا واقبالا على الصلاة كيف امتحن صاحبه بهدم صومعته ، وضرب الناس له ورميه بالفاحشة ، وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر كيف تجد قلة الادب هو الذي ساقه الى الحرمان ، وانظر قلة أدب عوف مع خالد كيف حرمه السلب بعد ان برد بيديه ، وانظر أدب الصديق رضي الله عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة ان يتقدم بين يديه فقال : ما كان ينبغي لابن ابي قحافة ان يتقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كيف أورثه مقامه والامامة بالامة بعده ، فكان ذلك التأخر الى خلفه ، — وقد أومأ اليه ان اثبت مكانك — جزا لا سعيا الى قدام ، بكل خطوة الى وراء مراحل الى قدام تنقطع فيها اعناق المطي . والله اعلم

## فصل

قال صاحب المنازل « الادب حفظ الحدين الغلو والجفاء بمعرفة شرر العدوان » هذا من احسن الحدود . فان الانحراف الى احد طرفي الغلو والجفاء هو قلة الادب ، والادب الوقوف في الوسط بين الطرفين ، فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها ولا يتجاوز بها ما جعلت حدودا له ، فكلاهما عدوان والله لا يحب المعتدين ، والعدوان هو سوء الادب . وقال بعض السلف : دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه ، فاضاعة الادب بالجفاء كمن لم يكمل اعضاء الوضوء ولم يوف الصلاة آدابها التي سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعلها ، وهي قريب من مئة ادب ما بين واجب ومستحب .

واضاعته بالغلو كالوسوسة في عقد النية ورفع الصوت بها، والجهر بالاذكار والدعوات التي شرعت سرا، وتطويل ما السنة تخفيفه وحذفه، كالتشهد الاول والسلام الذي حذفه سنة . وزيادة التطويل على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لا على ما يظنه سراق الصلاة والنقارون لها ويشتهونه ، فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يأمر بأمر ويخالفه ، وقد صانه الله من ذلك. وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمهم بالصافات ويأمرهم بالتخفيف وتقام صلاة الظهر فيذهب الذاهب الى البقيع فيقضي حاجته ويأتي أهله ويتوضأ ويدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركعة الاولى . فهذا هو التخفيف الذي أمر به ، لا نقر الصلاة وسرقها ، فان ذلك اختصار بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم ويسمى به مصليا . وهو كآكل المضطر في المخمصة ما يسد به رمقه ، فلبته شبع على القول الآخر . وهو كجائع قدم اليه طعام لذيذ جدا فأكل منه لقمة أو لقمتين فماذا يغنيان عنه ؟ ولكن لو احس بجوعه لما قام عن الطعام حتى يشبع منه وهو يقدر على ذلك ، لكن القلب شبعان من شيء آخر .

ومثال هذا التوسط في حق الانبياء عليهم السلام ان لا يغلو فيهم كما غلت النصارى في المسيح ، ولا يجفو عنهم كما جفت فيهم اليهود ، فالنصارى عبدوهم واليهود قتلوهم وكذبوهم ، والامة الوسط آمنوا بهم وعزروهم ونصروهم واتبعوا ما جاؤا به .

ومثال ذلك في حقوق الخلق ان لا يفرط في القيام بحقوقهم ، ولا يستغرق فيها بحيث يشتغل بها عن حقوق الله او عن تكميلها او عن مصلحة دينه وقلبه ، وان لا يجفو عنها حتى يعطلها بالكلية ، فان الطرفين من العدوان الضار ، وعلى هذا الحد ، فحقيقة الادب هو العدل ، والله اعلم

## فصل

قال ﴿ وهو على ثلاث درجات ، الدرجة الاولى منع الخوف ان يتعدى الى اليأس(١) وحبس الرجاء ان يخرج الى الامن ، وضبط السرور ان يضاهي الجرأة ﴾

(١) ب «الاياس» وكذلك في نسخة المتن

يريد انه لايدع الخوف يفضي به الى حد يوقعه في القنوط واليأس من رحمة الله ، فان هذا خوف مذموم . وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : حد الخوف ماحجزك عن معاصي الله فما زاد على ذلك فهو غير محتاج اليه . وهذا الخوف الموقع في الاياس اساءة أدب على رحمة الله تعالى التي سبقت غضبه وجهل بها .

وأما حبس الرجاء ان يخرج الى الامن . فهو ان لا يبلغ به الرجاء الى حد يأمن معه العقوبة ، فانه لايأمن مكر الله الا القوم الخاسرون . وهذا اغراق في الطرف الآخر ، بل حد الرجاء ماطيب لك العبادة ، وحملك على السير ، فهو بمنزلة الرياح التي تسير السفينة ، فاذا انقطعت وقفت السفينة ، واذا زادت ألقتها الى المهالك ، واذا كانت بقدر أوصلت الى البغية .

واما ضبط السرور ان يخرج الى مشابهة الجرأة ، فلا يقدر عليه الا الاقوياء ارباب العزائم الذين لا تستفزهم السراء فتقلب شكرهم ، ولا تضعفهم الضراء فتقلب صبرهم ، كما قيل :

لاتقلب السراء منهم شكرهم كلا ولا الضراء صبر الصابر

والنفس قرينة الشيطان ومصاحبته وتشبه في صفاته ، ومواهب الرب تبارك وتعالى تنزل على القلب والروح ، فالنفس تسترق السمع ، فاذا نزلت على القلب تلك المواهب وثبت لتأخذ قسطها منها وتصيره ، من عدتها وحواصلها ، فالمسترسل معها الجاهل بها يدعها تستوفي ذلك ، فبينا هو في موهبة للقلب والروح وعدة وقوة له ، اذ صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها وعددها ، فصالت به ولغت لأنها رأت غناها به ، والانسان يطغى ان رآه استغنى بالمال ، فكيف بما هو أعظم خطرا وأجل قدرا من المال ، بما لانسبة بينهما من علم أو حال أو معرفة او كشف ؟ فاذا صار ذلك من حاصلها انحرف العبد به — ولا بد — الى طرف مذموم من جرأة او شطح او ادلال ونحو ذلك ، وقد كم ههنا من قتيل وسليب وجريح يقول : من اين أتيت ؟ ومن اين دُهيت ؟ ومن اين اصبت ؟ واقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك أن يغلق عنه باب المزيد ، ولهذا العارفون وأرباب البصائر اذا نالوا شيئا من ذلك انحرفوا الى طرف الذل والانكسار ومطالعة عيوب النفس ، واستدعوا حارس الخوف ،

وحافظوا على الرباط بملازمة الثغر بين القلب و بين النفس ، ونظروا الى أقرب الخلق من الله وأكرمهم عليه وادناهم منه وسيلة واعظمهم عنده جاها ، وقد دخل مكة يوم الفتح وذقنه تمس قربوس سرجه انخفاضا وانكسارا وتواضعا لربه تعالى في مثل تلك الحال التي عادة النفوس البشرية فيها ان يملكها سرورها وفرحها بالنصر والظفر والتأييد ويرفعها الى عنان السماء ، فالرجل من صان فتحه ونصيبه من الله وواراه عن استراق نفسه وبخل عليها به ، والعاجز من جاد لها به ، فياله من جود ما أقبحه وسماحة ما اسفه صاحبها ! والله المستعان .

## فصل

قال ﴿ الدرجة الثانية الخروج من الخوف الى ميدان القبض ، والصعود (١) عن الرجاء الى ميدان البسط ، ثم الترقي عن (٢) السرور الى ميدان المشاهدة ﴾

ذكر في الدرجة الاولى كيف يحفظ الحدين المقامات حتى لا يتعدى الى غلو أو جفاء ، وذلك سوء أدب ، فذكر منع الخوف ان يخرجه الى اليأس (٣) والرجاء ان يخرجه الى الامن ، والسرور ان يخرجه الى الجرأة . ثم ذكر في هذه الدرجة أدب الترقي من هذه الثلاثة الى ما يحفظه (٤) عليها ولا يضيعها بالكلية ، كما ان في الدرجة الاولى لا يبالغ به بل يكون خروجه من الخوف الى القبض ، يعني لا يزايل الخوف بالكلية ، فان قبضه لا يؤيسه ولا يقنطه ولا يحمله على مخالفة ولا بطالة ، وكذلك رجاؤه لا يقعد به عن ميدان البسط ، بل يكون بين القبض والبسط ، وهذه حال الكمال ، وهي السير بين القبض والبسط ، وسروره لا يقعد (٥) به عن ترقيه الى ميدان مشاهدته ، بل يرقى بسروره الى المشاهدة ، ويرجع من رجائه الى البسط ، ومن خوفه الى القبض . ومقصوده ان ينتقل من اشباح هذه الاحوال الى ارواحها ، فان الخوف شبح والقبض روحه ، والرجاء شبح والبسط روحه ،

---

(١) في ب « والقعود » (٢) وفيها « من » (٣) وفيها « الا ياس » (٤) كتب فيها هامش ن « لعله يحفظها » وكان يجب ان يزيد كلمة « عليه » (٥) ب « يقعد »

والسرور شبح والمشاهدة روحه ، فيكون حظه (١) من هذه الثلاثة ارواحها وحقائقها، لا صورها ورسومها .

## فصل

قال ﴿ الدرجة الثالثة معرفة الادب، ثم الفناء (٢) عن التأدب بتأديب الحق ، ثم الخلاص من شهود اعباء الادب ﴾ قوله « معرفة الادب » يعني لابد من الاطلاع على حقيقته في كل درجة ، وانما يكون ذلك في الدرجة الثالثة ، فانه يشرف منها على الادب في الدرجتين الاولين ، فاذا عرفه وصار له حالا فانه ينبغي له ان يفنى عنه ، بان يغلب عليه شهود من أقامه فيه فينسبه اليه تعالى دون نفسه ، ويفنى عن رؤية نفسه وقيامها بالادب بشهود الفضل لمن اقامه فيه ومنه ، فهذا هو الفناء عن التأدب بتأديب الحق. قوله « ثم الخلاص من شهود اعباء الأدب » يعني انه يفنى عن مشاهدة الأدب بالكلية لاستغراقه في شهود الحقيقة في حضرة الجمع التي غيبته عن الأدب ، ففناؤه عن الادب فيها هو الأدب حقيقة ، فيستريح حينئذ من كلفة حمل اعباء الأدب وأثقاله ، لان استغراقه في شهود الحقيقة لم يبق عليه شيئا من اعباء الادب . والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) ن « حفظه » (٢) في نسخة المتن «الفنى»